

في ذكرى مرور مائة سنة على رحيل العلامة الشيخ ماء العينين

بقلم الشيخ الدكتور / يوسف جمعة سلامة
خطيب المسجد الأقصى المبارك
النائب الأول لرئيس الهيئة الإسلامية العليا بالقدس
وزير الأوقاف والشؤون الدينية سابقاً
www.yousefsalama.com

الحمد لله الذي أنعم علينا بالإسلام وشرح صدورنا للإيمان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:-

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} .

أيها الحفل الكريم :

نجتمع اليوم في هذا الصرح العلمي الرفيع في رحاب المكتبة الوطنية للمملكة المغربية الشقيقة للاحتفاء بمرور مائة سنة على رحيل العلامة الشيخ ماء العينين ، وإن كان العلامة الشيخ/ ماء العينين قد رحل عنا بجسده، إلا أن ذاكره الطيبة وما تركه من آثار عظيمة لا تزال حية في حياتنا كما قال الشاعر :

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم على الهدى لمن استهدى أدلاء
ففر بعلم تعش حياً به أبداً الناس موتى وأهل العلم أحياء

فالعلماء هم كواكب الأرض والسماء ، لذلك يجب علينا قراءة تاريخنا المجيد، لنستلهم منه العبر والعظات كما قال أمير الشعراء شوقي :

مثل القوم نسوا تاريخهم كلقيط عي في الحي انتسابا
أو كمغلوب على ذاكرة يشتكى من صلة الماضي انقضابا

فحن أيها الأخوة الكرام نجتمع اليوم لتخليد هذه الذكرى ، ولكي نستنبط العبر من سير هؤلاء العلماء الأبطال ولننهض ببلادنا ، ولنستفيد من مدرسة فقيدنا العلامة الشيخ ماء العينين الذي كان عالماً وفقياً ومفتياً كما قال الشاعر :

علم من أعلام الدين حجته في الدين المنطق
لم يُفْتِ بِأمرٍ إطلاقاً ما لم يتحرّر ويستوثق

وبهذه المناسبة فإننا نتوجه بأسمى آيات الشكر والتقدير لمنندى إسمارة لحوار الحضارات برئاسة الأخ الكريم الشيخ / ماء العينين هببة العبادلة على إقامته لهذه الندوة المباركة ، وعلى هذا الوفاء الكبير لعلم من أعلام المغرب الحبيب، كما قال الشاعر :

إن الكرام إذا ما أيسروا نكروا من كان يألّفهم في الموطن الخشن

وهنا فن نقف عند بعض المحطات من حياة فقيدنا الغالي - رحمه الله - :

* دوره في توحيد القبائل الصحراوية وتهيئتها للدفاع عن الدين والوطن :

ونحن في هذه المناسبة الكريمة لا يسعنا إلا الإشادة بما بذله عالمنا الجليل من جهود جبارة في إصلاح أحوال قبائل الجنوب المغربي ورأب الصدع بينها، وإزالة أسباب الخلاف ونبذ الانفصال ، كما عمل - رحمه الله - على توحيد المؤسسات العلمية والطرق الصوفية، فركز على إعادة بنائها اجتماعياً ، وتوفير الأمن والطمأنينة لأهلها، وما رافق ذلك من مصاهرة للقبائل ، ووقوفه مع المظلومين .

إن المنهج الذي سار عليه فقيدنا الغالي هو نفس المنهج الذي وضعه الإسلام لجمع الشمل وحرص الصوف وتوحيد الكلمة ، حيث إن الرسول - عليه الصلاة والسلام - عمل على إزالة ما بين الأوس والخزرج من خلاف (الأنصار) جعلهم أخوة متحابين ، وأخى بين المهاجرين والأنصار (جعلهم أمة واحدة) ، وصهر جميع الأجناس في بوتقة واحدة . كما سار المسلمون من بعده على ذلك ، حيث قام القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي قبل تحرير القدس برد الأمة إلى دينها ، وجمع شملها وحرص صفوفها، فسر قوتنا في وحدتنا، وإن ضعفنا في فرقتنا وتخاذلنا ، كما قال الشاعر :

رص الصفوف عقيـدة أوصى إليه بها نبيه
ويد إليه مع الجماعة والتفرق جاهلية

فعلينا أن نتمسك بالوحدة أفراداً وجماعات وشعوباً ودولاً .

* كان إماماً مجتهداً ، ونموذجاً للعالم المتواضع والمتسامح والمُجمّع وليس المفرق :

لقد أخذ - رحمه الله - عن والده القرآن الكريم والعلوم الشرعية واللغوية كما تأثر به في جانب التصوف ، فأقام الزوايا العلمية ومها زاوية إسمارة (التي أصبحت محط أنظار طلاب العلم) وفتح لها فروعاً، وهياً لها الأساتذة والمكتبات والحاجيات ، فكانت لا تقل عن

نظيراتها الجامعية ، كما كان يوفر لهم الطعام والشراب والكساء ، وبلغ عدد الطلاب عدة آلاف والحمد لله، كما كان له دور بارز في نشر العلم والنور في المغرب الحبيب، وقد ألف رحمه الله عدداً من المراجع والكتب العلمية.

إن وعي وسعة أفق الشيخ كان كبيراً جداً، حيث إن التدريس لم يقتصر على علم التصوف ، بل شمل كل المعارف من فقه وحديث وتفسير وطب وفلك وحساب وغيرها من العلوم التي تهتم بتحقيق السعادة في الدنيا والآخرة ، فديننا الإسلامي شجع على العلم في شتى المجالات، فبالعلم يحيا الإنسان ، وبالعلم ترقى الشعوب ، وبالعلم تتقدم الأمم ، وبالعلم ينتصر الحق على الباطل والمظلوم على الظالم، لأن العلم نور والله نور السماوات والأرض، وعند دراستنا للسنة النبوية الشريفة نجد هناك عدة أحاديث شريفة تبين مكانة العلماء وفضلهم منها قوله - صلى الله عليه وسلم-: (إن الله وملائكته، وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها ، وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير) ، وقوله أيضاً: (إن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر). وتاريخنا الإسلامي زاخر بالعلماء الأفاضل منهم : الكندي، والفاراني، والخوارزمي ، وابن النفيس، وابن الهيثم ، وابن سينا ، وابن خلدون ، وابن العربي العلوي ، والمختار السوسي، و علاء الفاسي، وغيرهم كثير، كما قال الشاعر .

نقد كنا وكان الناس في الزمن الخوالي

طلاب علم عندنا إن في الجنوب أو الشمال

يتعلمون على حضارتنا كتلمذة العيال

ونحن هنا نتساءل : هذا دور أمتنا سابقاً فأين دور الأمة الآن في التقدم العلمي والصناعي؟! ونحن المسلمين الذين أنزلت علينا سورة الحديد {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} .

*** الشيخ ماء العينين والجهاد :**

لقد ارتبط اسم عالمنا الجليل بمقاومة الاستعمار الأسباني والفرنسي ، حيث بنى فقيدنا رحمه الله مدينة السمارة واستقر فيها ، ومنها قام بتنظيم وتأطير المقاومة ضد المستعمر الفرنسي ، حيث عمل - رحمه الله - على تنظيم القبائل الصحراوية وتسليحها، كما وعمل على مقاومة الاستعمار بكل أشكاله .

فهذا هو دور العلماء والقادة والمصلحين في قيادة شعوبهم، والعلامة الشيخ ماء العينين نموذج مشرف لهذه النماذج العظيمة ، فالحركات الصوفية كان لها دور بارز في مقاومة الاستعمار، وما الشيخ عز الدين القسام في فلسطين ، والشيخ عمر المختار في ليبيا، وغيرهما عنا ببعيد.

وهذا هو حال الفلسطينيين الذين يجتمعون لمقاومة المحتلين لا فرق بين مسلم ومسيحي، مع العلم أن المصلين المسلمين يُمنعون من الصلاة في الأقصى ، كما يُمنع المسيحيون من الصلاة في كنيسة القيامة، كما أن سلطات الاحتلال قامت بقصف المساجد وحرقتها وفي مقدمتها المسجد الأقصى المبارك سنة ١٩٦٩ ، كما قامت بقصف مسجد عمر بن الخطاب وكنسية المهدي بمدينة بيت لحم .

* حوار الحضارات

وعندما نتصفح كتب التاريخ فإننا نجد صفحات مشرقة عن التسامح الإسلامي مع أهل الديانات الأخرى ، وعن الأسلوب الطيب الذي اتبعه المسلمون في احترام الآخرين .
نقرأ أمثلة حية على ذلك ، حيث نجد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- يرفض أن يصلي في الكنيسة التي عرض عليه أسقف بيت المقدس أن يصلي فيها لماذا؟ حرصاً من عمر- رضي الله عنه- على بقاء الكنيسة لأصحابها ، فقد قال للأسقف: لو صليت هنا لوثب المسلمون على المكان وقالوا : هنا صلى عمر وجعلوه مسجداً !!
كما أننا نجد أن العهدة العمرية التي أرسى قواعدها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- مع بطريك الروم صفرونيوس في السنة الخامسة عشر للهجرة، تمثل لوحة فنية عظيمة في التسامح الإسلامي الذي لا نظير له في التاريخ ، حيث نصت العهدة على حريتهم الدينية ، وحرمة معابدهم وشعائرهم.

كما نلاحظ المعاملة الطيبة من المسلمين تجاه أهل الكتاب وهذا ما دفع الكثير من أهل الكتاب للدخول في هذا الدين الجديد لأنهم وجدوا فيه ضالتهم من السماحة واليسر والمحبة والأخوة، فهذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وقد مرت عليه جنازة يهودي، فقام النبي - صلى الله عليه وسلم- لها ، فقيل له : إنها جنازة يهودي فقال : "أليست نفساً" .

وهذا أمير المؤمنين - عمر بن الخطاب - رضي الله عنه، يرى شيخاً متوكئاً على عصاه وهو يسأل الناس، فسأل عنه فقيل إنه كتابي، وفي رواية- نصراني- فقال : " خذوا هذا وضرباه إلى بيت المال فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته وتركناه عند شبيهه" ، كما وروي أن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما- ذُبح في بيته شاه فقال: أهديتم لجاننا اليهودي منها،

قالوا: لا، قال أهدوا إليه، فاني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم- يقول : (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه).

ومن المعلوم أن ديننا الإسلامي يشجع على حوار الحضارات، كما أنه لا يؤيد صراع الحضارات ، فالناس نوعان: إما أخ لك في الدين {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}، أو أخ لك في الإنسانية :{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}، ورسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - أرسى أصول ذلك بقوله - عليه الصلاة والسلام- في الحديث الشريف: (أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى أخي عيسى).

ومن الجدير بالذكر أن القرآن الكريم قد ذكر حوارات متعددة بين الله وملائكته، وبين الرسل وأقوامهم ...الخ، كما ذكرت كتب السيرة حوارات الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع الآخرين من خلال الرسائل التي أرسلها - عليه الصلاة والسلام - إلى هرقل عظيم الروم، وإلى كسرى، وإلى النجاشي ... وغيرهم كثير.

* دور المغاربة في الدفاع عن القدس وفلسطين :

لقد كان للمغاربة دور كبير في الدفاع عن القدس وفلسطين ، فعندما استعان القائد صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله - بالمغاربة ليساهموا في فتح فلسطين ، فقد استجابوا فوراً لذلك وأرسلوا (أسطول الموحدين) حيث ساهموا في فتح مدينة عكا وبالتالي فتح مدينة القدس ، كما توجد في مدينة القدس أوقاف عديدة للمغاربة منها : وقفية الملك الأفضل التي أوقفها علي الابن البكر لصلاح الدين على المغاربة اعترافاً بفضلهم وتقديراً لجهادهم ، كما أن هناك وقفيات عديدة في المدينة المقدسة وفي مقدمتها وقفية سيدي أبي مدين الغوث - رحمه الله-.

ونحن في هذه المناسبة الطيبة لا يسعنا إلا أن نشيد بدور لجنة القدس برئاسة جلالة الملك / محمد السادس في دعم القضية الفلسطينية في جميع المحافل العربية والإسلامية والدولية، كما نشيد بدور وكالة بيت مال القدس الشريف التابعة للجنة القدس والتي يرأسها معالي الدكتور/ عبد الكبير العلوي المدغري ، والتي تعمل بتوجيهات من جلالة الملك المغربي حيث تقوم بدور كبير في خدمة أهالي المدينة المقدسة في شتى المجالات الصحية والتعليمية والإسكانية والإغاثية، ومشاريع خدماتية كثيرة .

كما لا ننسى الموقف المشرف للملكة المغربية خلال الحرب الأخيرة على قطاع غزة حيث أمر جلالتة بتسيير جسر جوي لإيصال المعونات المغربية من غذاء ودواء، وكذلك إرسال وفد طبي ملكي ليضم جراح المصابين ويعالج آلاف المرضى والمحتاجين، وكذلك

تبرعه من ماله الخاص لإعادة بناء كلية الزراعة بجامعة الأزهر بغزة والتي دمرها الاحتلال الإسرائيلي أثناء عدوانه الأخير على قطاع غزة، وكذلك إعادة بناء مستشفى القدس الذي تعرض للتدمير في الحرب الأخيرة على قطاع غزة فجزاه الله خير الجزاء، كما نشيد بالدور الكبير الذي قام به الشعب المغربي الشقيق من خلال تبرعاته ، ومن خلال المسيرة المليونية دعماً للشعب الفلسطيني وقضيته العادلة .

وفي الختام لا يسعنا إلا أن نكرر شكرنا للأخوة في منتدى إسمارة لحوار الحضارات برئاسة الأخ الحبيب الشيخ / ماء العينين هيبه العبادلة لإقامتهم هذه الندوة في ذكرى مرور مائة سنة على رحيل العلامة الشيخ ماء العينين ، وكذلك الأخوة الحضور الذين يبرهنون بحضورهم على مدى حبهم وتقديرهم لعلماء هذه الأمة، لنستفيد من عطائهم وتاريخهم المجيد، ورحم الله القائل:

وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا
وما استعصى على قوم منال إذا الإقدام كان لهم ركابا

أتمنى لكم التوفيق والنجاح في مؤتمركم

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته